

صورة المجتمع المغربي في رحلة الكولونيل اسكوت

زييربن سخري،

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف،

ميلة.

zoubir24000@yahoo.fr

الملخص:

نعرض في مقالنا رحلة الكولونيل اسكوت من إسبانيا إلى المغرب

ثم إلى زمالة الأمير عبد القادر بعنوان :

A Journal of a Residence in the Esmaila of Abd-el-Kader, and of Travels in Morocco and Algiers, by colonel Scott.

كتب الكولونيل سكوت رحلته في شكل يوميات بداية

الأربعينيات من القرن التاسع عشر، نشرت في لندن سنة 1942، ترجمها

الدكتور إسماعيل العربي و نشرت سنة 1981م ، وهي من النصوص

القلائل التي نقلت صورة عن عادات وتقاليد المغرب العربي في ظل النظام

القبلي ، كما نقلت أوضاع المرأة والمسيحيين واليهود وصورة الأمير

المؤسطة في بدايات الاستعمار .

Abstract :

This article, which deals with Colonel Scott's tour from Spain to Morocco, and then to his colleague Emir Abd-el-Kader, is entitled:

A Journal of a Residence in the Esmaila of Abd-el-Kader, and of Travels in Morocco and Algiers, by colonel Scott.

Colonel Scott wrote about his trip in the form of a diary at the beginning of 1940s. This diary was published in London in 1942, and then translated to Arabic by Dr. Ismail El-Arabi to be published (Arabic version) in 1981. As a matter of fact, Scott's diary is one of the fewest manuscripts which depicted some customs and traditions of the Arabic Maghreb under the tribal system. Moreover, it exposed the issues of women, Christians, Jews and more importantly the idolized character of Emir Abd-el-Kader especially at the onset of colonialism.

تعد الرحلة الجنس الأدبي الأكثر تحررا من حيث تطور الشكل، بعيدا

عن الممارسات النقدية الأكاديمية التي يحكمها الجانب التاريخي؛ كونها

على صلة مباشرة وقوية بالعالم الواقعي المفعم بذات الإنسان ومشاعره

الحقيقية المرهونة بتجارب فريدة ونوعية قلما تتوفر لإنسان، من ثم ابتعدت

دراسات الرحلة عن قضايا الشكل والأسلوبية والشعرية واهتمت بموضوعات أقرب للثقافة منها للأدبية؛ كالهوية والصورة والعداات والتقاليد، و كل ما يخص المجتمع من وجهة نظر الآخر المختلف كلية، و في إطار رؤية ذات بشرية، لا تُشترط فيها المعرفة أو الكتابة حتى تكون بمثابة الراوي الذي ينقل ما يريد في شكل علاقات اجتماعية واقتصادية ودينية متمظهرة في أنماط لغوية مختلفة كالوصف والسرد والحوار والحديث النفسي؛ فيها من الحقيقة وفيها من الخيال والتأويل.

عادة ما يحكم الرحلة مسار مضبوط إذا كانت في إطار رسمي، كسفير أو رسول أو مبعوث، لكن ظروف السفر لا تسمح بذلك في الغالب لتغيرات سياسية أو أمنية أو ذاتية.

الكولونيل اسكوت ضابط في جيش المشاة الثامن الإسباني، شارك في الحرب الإسبانية بين المتحررين والملكيين (1833- 1839)، ونتيجة لجرح قرر المجلس الطبي عدم صلاحيته للخدمة، فقرر السفر إلى تكدمت لناصر الأمير في حربه العادلة ضد الفرنسيين، انطلق من مدريد إلى الجزيرة الخضراء حيث تعرف على السيد مانوتشي الذي كان قائماً على أعمال الأمير عبد القادر في جبل طارق، فعرض السيد مانوتشي على الكولونيل اسكوت أن يكون رئيساً لأركان حرب الأمير (الكولونيل اسكوت. 1981: 13- 14).

1- التعامل مع المسيحي :

منذ ظهور الإسلام ونجاحه في بناء امبراطورية قوية قسمت العالم إلى دار إسلام ودار حرب، فظهرت العديد من الأعمال الفنية التي تبين طبيعة هذا الصراع الضمني في العلاقات الاجتماعية والانسانية منذ " الكوميديا الإلهية " لدانتى و انتهاء بالرحلات من وإلى العالم الإسلامي وكذلك المسيحي، وخاصة لما للرصيد التاريخي من أثر في بناء العلاقات الإنسانية منذ الحروب الصليبية حتى الجلاء من الأندلس انتهاء بالحركة الاستعمارية، ومما زاد من تعقد وتشابك العلاقة بين المسيحي والمسلم هو قرب موقع أوروبا الجغرافي من شمال افريقيا حيث لم ينقطع التواصل بين الضفتين على مر التاريخ، ف" الحديث عن الصورة التي ارتسمت للعالم في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى يوجب البحث في مركزية دار الإسلام خلال تلك الحقبة المشبهة بالسجلات الدينية. فالمركزية الإسلامية

ومفهوم " دار الإسلام " سيقومان بتشكيل ملامح خاصة، ومتوقعة، لصورة الآخر " (عبد الله ابراهيم . 2004 : 321).

يورد لنا الكولونيل اسكوت الكثير من المشاهد الاجتماعية في المغرب والجزائر تبين صورة المسيحي في هذين البلدين، فكثيرا ما يدخل الكولونيل اسكوت ورفقاؤه القرى والمدن متخفين في زي العرب حتى يتجنبوا الإهانات ومحاولات السطو" عندما وصلنا إلى باب مدينة تيطوان، لبسنا جميعا "برانس وطرايش"، وذلك حتى نتجنب التعرض لإهانة بعض السكان، الذين يرون في دخول مسيحي إلى داخل البلد شيئا جديدا ومثيرا، حيث أنه لم يكن من المسموح للمسيحيين بالمرور في هذه البلاد منذ عدة قرون، وذلك فيما عدا الذين يعتقدون الاسلام " (الكولونيل اسكوت. 1981: 22).

كان يوصف المسيحي بـ "الكلب ابن الكلب" وقد أوردنا الكولونيل في العديد من السياقات والمواقف وذلك لما للكلب في الثقافة العربية من دونية، "ومن هناك نظر إلي أحدهم وبصق قائلا: أيها الكلب"، "ومتى سألت، إلى أية جنسية تنتمي، وأجبت بأنني انجليزي، كان جواب المخاطب على الفور «مليح» !، ولكنني أجبت في بعض المرات بأنني فرنسي، فكان الرد: «كلب بن الكلب»"، "وقد تحدثت مع عربي كان يركب جملا ووجدت كثيرا من التسلية في رده على سؤال وجهته إليه عن طريق مترجمي بشأن الاتجاه الذي يقصده. كانت بندقيته معلقة على كتفه، وقد كان رده هو: "إلى مقاتلة الرومي الكلب"!...كان في البداية يظنني فرنسيا...، "وأما الاحترام الذي قولنا به. من مضيفنا، فيمكن أخذ فكرة عنه من أننا لما طلبنا شيئا من القمح، قال الرجل لأخيه: "أحضر شيئا من القمح لهؤلاء الكلاب"، والكلب على كل حال، هو اللقب الذي يطلق على كل مسيحي، مهما كانت ميوله"، "...حيث اكتفى برفع شاربه ونظر إلي بكل احتقار، قائلا: الرومي بن الكلب". (الكولونيل اسكوت. 1981: 151، 197، 192، 191)، ولم تنحصر الإهانات في السب والشتم بل تمتد إلى رفض المساعدة، فنجد البغال المرافق للكولونيل يرفض مساعدته حتى لايلمسه لنجاسته، "...وفي الطريق أثار فضولي موقف البغال المتعصب منا حيث كان يرى أن من الخطيئة أن يمس أحدا منا..."، "وفي إحدى المناسبات رفض الشخص الذي يرافق فرسي أن يساعدني لامتناء ظهر البغل الذي

يحمل الأمتعة...وقد تلت ذلك مناقشة طويلة، أحسست إثرها بتغير معاملة المرافقين الذين أصبحوا أكثر احتراماً لي، ذلك على الأقل في الظاهر، وأما في الباطن. فإني لا أشك في أنهم يلعنون هذا المسيحي الذي يرافقهم، (الكولونيل اسكوت. 1981: 24).

كذلك التدخل في حياة المسيحيين الشخصية، فنجد بعض العرب يرفضون اختلاء السيد مانوتشي بزوجته "بينما كان السيد مانوتشي مستلقياً في خيمته ويجواره مادلينا، عندما تقدم عربي من باب الخيمة ووجه الحديث إلى زميله قائلاً: "انظر إلى هذا المسيحي كيف يختلي بزوجته بكل برودة" (الكولونيل اسكوت. 1981: 26)، وامتد الأمر حتى محاولة القتل أو التهديد به "ولم نكد ندخل المدينة حتى لاحظ أحد الأشخاص سراويلي الأوروبية ورفع عنها برنوسي وأشار إليه أمام جمع من الناس قائلاً: «إن هذا رومي!». وفي نفس الوقت رفع حجراً وحاول أن يقذفني به، ولكنني انحرفت وتجنبته، في الوقت الذي تدخل بعض المتفرجين بيننا... والشخص الذي أراد أن يعتدي علي (وهو مرابط) يسير في إثري، ويدعو المؤمنين إلى مساعدته على قتلي. وسرعان ما انضم إليه جمهور غفير بحيث كان ورأيي قبل وصولي المشور نحو ثلاثمائة شخص..."، "وهو على كل حال كان أحسن مما كانوا ينوون تقديمه إلي في البداية، عندما عرفوا أنني مسيحي، وهو تركي في الشارع أو حز رقبتني" (الكولونيل اسكوت. 1981: 193، 191)، ولم يكن هذا موقف الرجال فقط، بل هي كذلك معاملة النساء، "أما العربية الجميلة، فإذا اتجهت عينك إليها، فستجيبك بتقطيب حاجبيها وبكلمة «كافر ابن كلب» حتى القائمة على أعمالهم تحاول سرقتها أو تمزيقها"، تقوم المرأة التي كلفت بخدمة المسيحيين بغسل ثيابهم في النهر، وقامت صبيحة ابنتها التي تبلغ الثامنة من العمر باختطاف قميصين... وكذلك قامت بمحاولة ثانية فأخفت زوجين من الجوارب في حائكه... ولكنها انتقمت لنفسها وعوضت على غباوتها بأن عضت عدداً من أززار قمصانهم بينما كانت تشفها في الشمس! وفيما يتعلق بقميصي أنا، فقد وجدت أن جميع أززاره قد انتزعت منه" (الكولونيل اسكوت. 1981: 78، 124).

لا تكاد تتجاوز علاقة المسيحي بالمرأة النظر بالعين، وإن تجاوز الأمر ذلك إلى الحديث، كان لهما شأن آخر "لقد أنعمت علي بنظرة، هذا كل ما في

الأمر، وهذا أقصى ما يمكن أن يطمح إليه مسيحي من امرأة عربية، وحتى لو أراد الزواج بمسلمة، فإنه يتحتم عليه أن يتخلى عن دينه ويعتق الإسلام، ومتى فوجئت وأنت تتحدث بلغة ناعمة إلى سيدة من الطبقة الراقية، فإن ذلك قد يكلفك رأسك"، "قد أخبرني بأن هذه هي الحقيقة وأن زوج زليخة قد اشتبه في الأمر هو الآخر... وأنه اتهم المرأتين عند القاضي بالتحدث إلى مسيحي. وكذلك وضعت زليخة في السجن حيث ستعيش أسبوعاً كاملاً على الخبز والماء" (الكولونيل اسكوت. 1981: 38، 124)، وامتد منع المسيحيين حتى عن بيوت المسلمين كونها امتداداً لنسائهم... وأما الأحياء التي يسكنها المسلمون من المدينة، فإنني قد حرمت من رؤية منازلها من الداخل، حيث أنني مسيحي" (الكولونيل اسكوت. 1981: 19)، لم يكن من السهل على مسيحي أن يتغلغل وسط المجتمع المغربي المسلم، لولا مكانة الأمير المعنوية في نفوس الناس، ورغم ذلك لم يسلم من محاولات السرقة والاعتداء.

2- حال اليهود:

لم تختلف كثيراً حال اليهود في المجتمع المغربي عن حال المسيحيين، فقد نقل لنا الكولونيل اسكوت صورة هذه الطبقة المهمشة في ظل المجتمع الإسلامي المركز، وهم فئة اجتماعية مهمة جداً في المجتمع المغربي لما نقلوه من صنائع من بلاد الأندلس كالصياغة وصناعة العطور وطرز الملابس، إلا أنهم يعيشون في مجتمع داخلي متقوقع معزول مادياً وثقافياً، "واليهود في تيطوان مثلاً هم في جميع المدن التي تسود فيها الديانة الإسلامية - يعيشون في حي خاص بهم ويعاملهم المسلمون على أساس أنهم أقل شأنًا. ولكن المسلمين يسمحون لهم بالعيش في بلدتهم كما يحثهم القرآن الذي يمنحهم الحماية باعتبارهم من الذميين الذين يخضعون للحكام المسلمين"، "...وأما القرية التي يقطنها اليهود، فهي تقع على منحدر إحدى الهضاب ويحيط بها حائط مبني بالحجر يبلغ ارتفاعه نحو 12 قدماً..." (الكولونيل اسكوت. 1981: 61، 20)، فهذا الانغلاق هو السمة الوحيدة الدائمة التي تنتشر في العديد من المدن الإسلامية، وفق القبائل والعشائر والأعراق والمذاهب، فقد احتل اليهود والنصارى الذين لم يدخلوا الإسلام القطاعات المحددة والمميزة جداً حيث تجمعوا (دومنيك سورديل. 2007: 187)، فلا تكاد تخلو مدينة من المدن التي مرَّ بها الكولونيل من

وجود اليهود، "... ورغم نسبتهم الضئيلة في المجتمع إلا أنهم شريان الحياة الاقتصادية، لكن الممارسات السلطوية العربية الإسلامية تحاول أن تحد من نفوذ هذه الطبقة حتى لا تخرج عن الحيز الثقافي والاقتصادي والاجتماعي المرسوم لها في إطار الصراع الديني" والتجار اليهود في المغرب الأقصى، مثلما هي الحال في الجزيرة العربية، هم الذين يمارسون النشاط التجاري الأساسي، ولكنهم كثيرا ما يجبرون على تحويل ثرواتهم إلى الحكام، بسبب ارتفاع الضرائب والجزية المفروضة عليهم.

متى عرف عن يهودي أنه جمع ثروة طائلة تسعى السلطات المحلية بجميع الوسائل، وبمختلف الأعداء للاستيلاء عليها، "ويمنعون عنهم تملك العبيد لأن ذلك يزيد في نفوذهم وتجارتهم"، أبلغني اليهودي الذي نزلنا في بيته (وهو صائغ فضة) أن عربيا يحترف مهنته يملك ثلاثة من الإسبان يعملون في معمله، اشتراهم بثلاثة وسبعة وعشر دولارات على التوالي. واليهود غير مسموح لهم بامتلاك العبيد. وهذه الحقيقة كانت مثارا لكثير من الأسف في نفس مضيفنا الذي يرغب بدون شك في الحصول على بعض المساعدين بالسعر المذكور أعلاه" (الكولونيل اسكوت 1981: 40، 20).

ولا يتوقف الأمر عند الحد من النفوذ بل تظهر أشكال النسق الثقافي الذي يعامل من خلاله المسلمون اليهود في صور وأشكال تعاملات أخرى يعيشونها يوميا وفق مشاعر ومعاني لا تموت ولا تخبو، فلا يطؤون مقابر المسلمين "وهذا القبر يقدسه السكان وينظرون إليه بعين الإجلال بحيث أن اليهود عندما يمرون بهذه الطريق إلى فاس يضطرون إلى الخروج منها وإلى سلوك طريق فرعية تدور من بعيد بالقبر حتى لا تدنس حرمة أقدامهم"، "مررنا بمدينة القصر واجتازنا مقبرة المسلمين، وهي تقع خارج أسوار المدينة مباشرة. وهذا الحدث كان مثارا لدهشة اليهود الذين كانوا يرافقونا حيث كانوا مضطرينهم لسلوك طريق ملتوية لتجنب مقبرة المسلمين - وهو الشأن في الحقيقة، عند المرور بأي قبر ولي أو رجل صالح. إن اليهود غير مسموح لهم هنا حتى بالدخول بنعالهم إلى المدينة. وأما دخول المسيحيين إلى الأحياء الإسلامية من المدينة فهو غير مسموح به البتة"، "على أن حياة هؤلاء اليهود في فاس لا يحسدون عليها. فهم لا يستطيعون السير في القسم

الغربي من المدينة إلا بعدما يخلعون نعالهم ولباس رؤوسهم. ومضى لبسوا شيئاً على رؤوسهم أخذهم المسلمون منهم ورموه جانبا، بل إنهم كثيرا ما يبصقون في وجوههم" (الكولونيل اسكوت. 1981: 25، 196، 24).

يرى المسلمون أن سماحهم لليهود بالعيش معهم أكبر تنازل قدموه لهم، فلا ضير إن عاملوهم كالعبيد أو الخدم، يتملكونهم ويفعلون بهم ما يشاءون، ويسخرون منهم بطرق مخيفة، "وفي يوم 19 من الشهر، أخذ يهوديان من وهران وطباخ الجيش الفرنسي أسرى... على أن اليهوديين أخرجوا وقدموا للبيع، وقد عرض بعض العرب مبلغ 230 دولار سعرا لهما لكي يحزوا رأسيهما، ولكن إخوانهم من يهود تلمسان قدموا مبلغ 240 دولار في مقابلهما، وبذلك أنقذوا رأسيهما من الخنجر المسلول على الأقل مؤقتا"، "ونتيجة لأن اليوم هو يوم المولد النبوي... وكثيرا ما نشاهد العرب يتسلون بتسديد فوهات بنادقهم إلى اليهود الذين لا يتذوقون كثيرا هذا النوع من التسلية، حيث أن الطلقة النارية قد تحتوي على رصاصة" (الكولونيل اسكوت. 1981: 82، 135)، ما يلفت الانتباه في رحلة الكولونيل اسكوت أنها تخلو من الأحكام، فهو يصف ما يرى ولا يقيمه كأوروبي إلا في بعض المواضع، لكن الوصف الذي يلقي الاهتمام من الرحالة هو نابع من غرائبيته عن المؤلف الذي عاشه في مجتمعه الذي يوصف بالعقلي، ويموضع كل شيء في إطاره، عكس المجتمع الشرقي الذي يتوارث الأحكام المشبعة بالفردية والأنساق التقليدية والخرافية حيث "يصعب تخليص صورة الآخر من الآثار المباشرة التي تتركها عليها الثقافة المتمركزة على نفسها، وقد كانت المركزية الإسلامية، ممثلة بدار الإسلام، ونظامها القيمي المعياري، هي الموجه الأكثر فاعلية في صوغ ملامح تلك الصورة، وهي في عمومها صور رغبوية تتأدى مكوناتها عن رغبة في تضخيم الأنا الثقافية الأمر الذي يقود إلى خفض قيمة الآخر" (عبد الله ابراهيم. 2004: 323)، رغم التعايش الذي عرفته الطوائف والملل في

المجتمعات الإسلامية إلا أن ذلك لا ينفي وجود مركزية عربية إسلامية تتحكم في السلطة والثروة لكن ذلك كان في إطار المجتمعات القروسطية التي لم ينضج فيها الحس المدني الحضاري كما ينبغي بالذات الإنسانية على اختلاف انتماءاتها.

3- مكانة المرأة :

يصف الكولونيل اسكوت بعض المظاهر النسوية والاحتفالية من زوجة السلطان إلى الأمة، "وفيما يتعلق بالجنس اللطيف، فإن من المستحيل، بصفة عامة، أن تقع عينك على وجه سيدة في هذا الجزء من العالم، ولكنه في هذه القضية أيضا، لا توجد قاعدة بدون استثناء! وهذا يتضح في الحادث التالي الذي وقع عقب وصولنا بوقت قصير :

السطوح في المغرب تشبه السطوح في كثير من البلدان الشرقية. والاتصال بين سطح وآخر يتم بدون صعوبة. ونظرا لأننا نعتبر نوعا من الحيوانات الغريبة، فإننا لانستطيع الصعود إلى السطح دون أن نشاهد على السطح المقابل صفوفًا من النساء العربيات واليهوديات اللاتي يحاولن اختلاس نظرة إلينا..."، "وجدنا منظرا مؤثرا للغاية، زوجات الآغا الأربع، وقد ركن في هوداج محملة على ظهور الجمال...كان في المسيرة عدد كبير من الأطفال شبه عراة وأمهاتهم الملفوفة في "الحايك" ... وكثير من النساء اللاتي ينتمين إلى الطبقة السفلى لا يغطين أوجهن ... وبعضهن موشمات معظم القبائل الجبلية، تشبه إلى حد كبير القبائل النيوزيلاندية، ولا سيما النساء اللاتي يستعملن نفس الطرق لوشم الوجه والرجلين" (الكولونيل اسكوت . 1981 : 37، 77)، فلا أثر للنساء في الشوارع أو الطرقات، ولهن الخطوة في سقوف منازلهن المسورة؛ وإن هي سافرت فإما متسترة داخل هودج لانتمائها الطبقي (Joëlle 1988: 69 Redouane) أو يلفها الحايك، حيث يسمح لنساء الطبقة السفلى بالكشف عن وجوههن وربما يرجع ذلك إلى تراتبية التسلط الذكوري وتمركزه في فئة معينة دون بقية الفئات كحال الأمة في العصر العباسي حيث يسمح لها بالكشف عن شعر رأسها وبأجزاء من

جسدها، "لقد حافظ ريفيو القبائل الجيليون على الرغم من الفتوحات والاعتناق لأديان أخرى... على بنى محمية التماسك العملي السليم نسبيا، وبسلوكيات وخطب منزوعة جزئيا من الزمن بواسطة التتميط الطقوسي، تمثل شكلا نموذجيا للرؤية "القضيبية النرجسية" والكسمولوجيا المركزية الذكورية اللذين هما مشتركان بين المجتمعات المتوسطية " (بورديو، ب. 2009: 22)، وتمتد هذه الممارسة السلطوية من الهودج إلى الحايك إلى التشريعات الشفوية التي تحظر اتصال المرأة مع الأجانب، "وأنة اتهم المرأتين عند القاضي بالتحدث إلى مسيحي، وكذلك وضعت زليخة في السجن حيث ستعيش أسبوعا كاملا على الخبز والماء " (الكولونيل اسكوت . 1981: 38).

حظيت السلطنة دون غيرها بوصف من الكولونيل اسكوت خلصة عن أعين الرقباء "وقع نظري اليوم صدفة على السلطنة بينما كنت مستلقيا في ظل شجرة وكانت هي تمر قريبا مني في طريقها إلى ضريح والدها... إنها تبلغ حوالي خمسة أقدام وثلاث بوصات في الطول، سوداء الشعر ومرتفعة عظام الوجنتين نوعا ما (وهذه ميزة لكثير من النساء الجزائريات، مثلما هي ميزة للسكوتلانديات) وعيونها زرقاوان كبيرتان، وسيقانها مكتزة يعلوها وشم جميل بالحروف الهيروغليفية يرتفع حتى منتصف الساق، لقد أنعمت علي بنظرة... وهذا أقسى ما يمكن أن يطمح إليه مسيحي من امرأة عربية... ومتى فوجئت وأنت تتحدث بلغة ناعمة إلى سيدة ناعمة من الطبقة الراقية، فإن ذلك قد يكلفك رأسك، إذا كنتما أعزبين " (الكولونيل اسكوت . 1981: 124).

كان حظ اليهوديات من الوصف أكثر لطبيعة طبقتهم المهمشة والقريبة من طبقة العبيد، حيث لم يجد الكولونيل صعوبة في لقاءهن ووصفهن عكس المغاربيات، " واليهوديات يتمتعن بحظ كبير من الجمال في معظم الحالات، ونحن لم نتمكن من إقامة أي اتصال بهن حيث لم يكن يتحدثن سوى العربية والعبرية... والشيء الذي أثار انتباهي بصفة خاصة في لباس هذه السيدات، هي الطريقة التي يلبسن بها أقراطهن. فبدلا من تعليق القرط في أسفل الأذن، كما جرت العادة، فهن يعلقنها في أعلى الأذن.

ونظرا لأن الأقراط من الحجم الكبير، فقد كانت الأقسام العليا من الأذن تتدلى، تماما مثل أذان الحمير المتعبة ^(١)، "وبين النساء اليهوديات يوجد كثير من الفتيات الجميلات، ولكن الشيء الذي استلفت نظري أكثر من كل شيء آخر في هذه النساء هو ما يحملنه من الذهب والثياب المزركشة التي يرتدينها والحزم المنسوجة بخيوط الذهب أو بخيوط الفضة، حسب مركز صاحبة الحزام الاجتماعي. وفي هذا السياق، يجب ألا أنسى قرط اليهوديات. فقد رأيت فتاة، وهي ابنة يهودي يعمل نائبا لقنصل فرنسا، ترتدي قرطين يتدليان من أذنيها في شكل كمثري، وكان القرطان من الثقل بحيث إنها اضطرت إلى تعليقهما بخيط من الذهب إلى عصابة الذهب التي تزين شعر رأسها والتي كانت محلاة بالجواهر. والقرط من الحلي الفاخرة التي تعزز اليهوديات بتزيين أنفسهن بها، مثلما يفتخرن بامتلاك الأحجار الكريمة. وهذه المجوهرات الشرقية التي تزين رؤوس اليهوديات كثيرا ما تبلغ قيمتها عدة آلاف من الدولارات. وأما الجوارب، فإنه لا يروق لباسها إلا لقليل من اليهوديات، حيث إنهن يفضلن عليها الخلخال المصنوع من الفضة والذي يزيد في جمال الرجل التي تلبس "البغلة" المغربية حمراء اللون" (الكولونيل اسكوت. 1981 : 2038)، لكن من خلال الوصف لا تتبين أي علاقة بين اليهوديات والعبيد، بل يظهر نوع من الاعتناء بالجمال الذي يدل على رغد العيش والتحرر النسبي من سلطوية المجتمع المغربي، يوجد حقيقة تتوقع يهودي داخلي لكنه أكثر انفتاحا مقارنة بالمجتمع المغربي.

يمتد وصف الكولونيل إلى مظاهر الاحتفال عند اليهوديات ولا يذكر مظهرها واحدا يخص النساء في المولد النبوي الشريف، "نجد أن عظمة الاحتفال بعيد الفصح في هذا الجزء من العالم تتجلى في ألوان الملابس، أو على الأقل ملابس السيدات، وبمناسبة هذا العيد تقوم اليهوديات لا بصبغ أظافرهن فحسب، بل وأيضا أيديهن...هي أن يقمن بإعداد عجينة من الحناء ويغطين أيدهن بطبقة كثيفة منها ثم يلفنها في عصابات طوال الليل " فيما يقابله بحال المرأة المسلمة في شهر رمضان، " ولكن الجنس اللطيف يتخوف كثيرا من هذا الشهر (شهر رمضان)، حيث الأزواج الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة يسهرون جزءا كبيرا من الليل ثم يغدون لممارسة أعمالهم اليومية كالعادة ، ومن ثمة فهم متوترو الأعصاب ومزاجهم معكر في

أكثر الحالات، وحيث أنهم لا يجدون من يصبون عليه جام غضبهم سوى نصفهم الحلو، فهم كثيرا ما يبلغ بهم الأمر إلى حد استعمال العصا" (الكولونيل اسكوت. 1981: 52، 164)، وهذا السلوك الذكوري هو مزاجية بين العنف الرمزي والجسدي (بورديو، ب. 2009: 61)، الذي لا يشعر به الرجل في ظل النسق الثقافي ولكن يشعر به في ظل المقارنة بين اليهوديات والمسلمات، كما قتال المرأة حظها من العبودية كالرجال وتعرض للبيع مع الحق في كشف ما ستر من جسدها وذلك لمتاخمة المجتمع المغربي لحدود الصحراء الممون الرئيسي بهذه السلعة النفيسة داخل المجتمعات التقليدية " والعبيد السود كثيرون هنا، وسعر الواحد منهم يختلف باختلاف عمره وبما إذا كان ذكرا أو أنثى ويتراوح بين 30 و80 دولارا، ولكنه علم أن أمة جميلة كلفت مبلغ مائة دولار، على أن هذا أعلى سعر سمعت بأنه دفع لشراء عبد أو أمة من السود، وأما الأمة من البيض، فقد يدفع في مقابلها سعر يبلغ 300 دولار، إذا كانت جميلة، ولكنها إذا تجاوزت سنا معينة فإن سعرها يكون حينئذ في مستوى سعر السوداء " (الكولونيل اسكوت . 1981: 40)، ورغم هذا التسلسل المفرط توجد هناك تراتبية داخل مجتمع العبيد قائمة على اللون ومدى صحة وقوة الجسد، فالمركز دائما يحول أعدادا هائلة من الناس إلى "آخرين" وجعلهم متخلفين ودونيين اعتمادا على "مجاز مانوي" (آنيا لومبا. 2007: 113). لخدمة نظام اقتصادي يقوم عليه نظام حكم اجتماعي .

4- خرافات المجتمع :

لا يمكن أبدا الفصل بين بنى المجتمع المختلفة، وكل بنية تساهم في توضيح البنى الأخرى؛ فالخيال الاجتماعي يفسر ضمينا علاقات الاستعباد والتسلط، هذا من جهة، كما يعكس الخيال علاقة التاريخ بالواقع الاجتماعي في إطار الفضاء والحدود السياسية، فقد ظهرت في عمل الكولونيل اسكوت شخصية "المرباط" التي هي نتيجة لصدام إسلامي مسيحي في شمال افريقيا، وما إن تغيرت موازين القوى حتى تغير المفهوم الأنطولوجي والديني والاجتماعي لهذه الشخصية التي وجدت في الظروف الجديدة مصلحة للبقاء حتى درجة أن تشكلت قبائل تعود بنسبها لهؤلاء المرباطين وتمركزت سلوكيات القبيلة حول قيمهم ومعتقداتهم، كما

تظهر بقوة شخصية " الولي الصالح " التي تعكس نوعا معينا من التدين الذي يمتزج بالتصوف والخرافة، وما انفك أن امتزج المفهومين في اعتقاد الناس وسلوكياتهم، وقد انتشرت الظاهرة انتشارا كبيرا لتفشي الخرافة والجهل، " وفي طريقنا بعد ذلك مررنا بقبر ولي آخر، ولكنه نظرا لكثرة عدد الأولياء الذين مررنا بهم، فقد فاتني أن أستفسر عن اسمه، وكذلك رأينا زاوية أحد المرابطين على مسافة إلى يسار الطريق.

وقبور الأولياء والزوايا عادة مبنية بالحجر، وهؤلاء في معظم الحالات يختارون أماكن إقامتهم على قمم الجبال، وفي المساء وصلنا إلى مكان يدعى "قبور العبد"، وهذه المنطقة عزيزة على نفس السلطان حيث أنها مسقط رأسه ومرقد أبيه وأجداده منذ عدة أجيال. وكذلك ينظر إليها جميع العرب بعين الاحترام، بل والتقديس، بسبب العدد الكبير من الأولياء والصالحين الذين توجد أضرحتهم فيها "، "...غادرنا معسكر في طريقنا إلى تكدمت، وسرنا في طريق تمر بواد جميل للغاية، ويبدو أن هذه الأرض خصبة ذات إنتاج كبير من الحمقى وال دراويش، إذا حكمنا عليها بعدد أضرحة المرابطين التي تصادفنا، فقد بلغ ما شاهدته من هذه القبور في نظرة واحدة خمسة عشر ضريحا "، "... المكان لا يضم حتى الآن سوى خمسة منازل مبنية بالحجر يسكنها مرابطون..." (الكولونيل اسكوت. 1981: 84، 80، 29، 129)، ولا زال المرابطون يمارسون دورهم في الدعوة إلى الله وممارسة الغيب والنبوءة لما يحظون به بين الناس من مكانة أقرب للقداسة، موهمين الناس بخوارق حصرا عليهم، "وفي محادثة أجريتها اليوم، مع صديقي مصطفى، قال لي أنه توجد نبوءة ستتحقق بالتأكيد، تقول بأن ابن أخ له سوف يحكم هذا البلد بأسره، وقال إن هذا المرابط؛ أي المغفل، المرشح لحكم البلد، كثيرا ما يسافر إلى تيطوان أو طنجة بالليل ويعود إلى داره مع الصبح. وفي مناسبات أخرى، يسافر إلى مليانة، ويعود بنفس السرعة. ومضيفي يولي أهمية عظمى لهذا السير بالليل، وبالتالي فهو يعتقد أن ابن أخيه أعظم منه شأنًا! ومهما يكن من أمر، فإني مضطر إلى التظاهر بتصديق خرافاته..." (الكولونيل اسكوت. 1981: 184)، وقد استتب الأمر للمرابطين على حد قول محمد أركون وفق آلية المتخيل الديني

الذي يحكم الجماهير، فقد كان المرابطون من الأقلية التي تعرف الكتابة والقراءة (أركون، م. 2007: 46- 79).

ولا تتوقف الخرافة عند حد من الحدود بل تشمل كل المظاهر المحيطة بالناس ولا يجدون لها تفسيراً مقنعاً في اعتقاداتهم، " وهناك يمكن مشاهدة آثار نصف برج غير بعيد من الطريق، يبلغ طوله نحو 60 قدماً وعرضه 20 قدماً مربعة، وفي جزء من سور يحيط بضبعة تقع على مسافة نحو نصف ميل من تلمسان، يوجد نصف برج مماثل للنصف المذكور، وتقول أسطورة عربية إن النصفين كان يشكلان برجاً واحداً، ولكنه نظراً لأن عربياً ويهودياً قد اشتركا في بنائه وتنازعا على بعض المسائل التي تتصل ببنائه، اختفى النصف الذي صنعه اليهودي تحت جنح الليل، ثم اختفى النصف الذي صنعه العربي الذي وجد طريقه إلى مكانه الحالي " (الكولونيل اسكوت. 1981 : 64).

كما نجد نموذجاً آخر للخرافة ولكن يتمركز حول العرق والأصل، فالكثير من القبائل المغربية التي تربط أصولها بعائلة النبي(ص) وأحفاده، وتسمى بالأشراف، وقد حظوا بمكانة تليق حقيقة بانتمائهم المزعوم إلى الرسول(ص)، فلا غرابة أن تنشأ خرافات تخص الأشراف وتحمي سلطتهم بين الناس وفي مجتمع هم غرباء عنه، " وقد غادرنا قرية همسال... ثم سرنا في طريقنا حتى تجاوزنا بعض الآثار الرمانية،... والشيء الوحيد الذي يستحق التسجيل في مسيرتنا في ذلك النهار، هو مرورنا بمكان يسمى "زمر الأسرى"، تقول الأسطورة أنّ أم محمد (ص) مدفونة فيه. وقد يتصور الإنسان أن هذا القبر الذي يأوي عظام والدة أكبر مشرع في العالم...إنه عبارة عن قبر محاط بأشجار الصنوبر وبحائط مبني بالحجر لا يزيد ارتفاعه عن 4 أقدام. وهذا القبر يقده السكان وينظرون إليه بعين الإجلال بحيث أن اليهود عندما يمرون بهذه الطريق إلى فاس يضطرون إلى الخروج منها و إلى سلوك طريق فرعية تدور من بعيد بالقبر حتى لا تدنس حرمة أقدامهم " (الكولونيل اسكوت. 1981 : 24)، وتعود فكرة هذا القبر إضافة لما سبق، إلى انتشار فكر الدراويش والمرابطين، كذلك أشار الكاتب إلى الآثار الرومانية، ومنها القبور التي كان لها رصيد مسيحي من الخرافة والقداسة قبل مجيء الإسلام، كما نالت أسرة الأمير هالة من التقديس في نفوس الأهالي، " وجميع الأطفال الرضع الذين يموتون

من أبناء القبيلة يوارون التراب في ضريح والد الأمير، بناء على تصريح له بذلك" (الكولونيل اسكوت 1981: 106).

شملت كذلك الخرافات بعض الحيوانات لاعتقادات وثنية متداخلة، "وكذلك توجد طيور بكثرة... وبعض هذه الطيور أليفة بحيث أنها لا تبالي بالإنسان حينما يقترب منها. والأهالي يعتبرونها حيوانات مقدسة... وقد أردت ذات مرة صيد أحد هذه الطيور ولكن الرفقاء نصحوني بالعدول عن ذلك حيث أن ذلك من شأنه أن يؤثر في نفوس العرب" (الكولونيل اسكوت 1981: 27)، ومن هذه الخرافات مازال ما يعتقد به إلى حد اليوم في الجزائر والمغرب.

في مثل هذا التداخل الثقافي يصعب جدا البحث عن مصدر الخرافة خاصة في إطارها الشفوي، إلا أن هناك بعض الخرافات المنسوبة لأقوام دون غيرهم كأسطورة نبل الأسد التي يتداولها العرب وانتقلت إلى المجتمع المغربي، "تجول الأمير في شوارع المدينة حتى ما بعد منتصف الليل. وعند عودته، توقف عند جدول تكدمت وأخذ يتوضأ استعدادا لصلاة الصبح، وبينما كان يغسل رجليه، شاهد أمامه أسدا لاشك أنه كان يقوم بزيارة عابرة للمنطقة.

رفع الأمير بصره ونظر بحدة إلى الحيوان مقطبا حاجبيه وأردف هذه النظرة بشتيمة: كلب ابن الكلب! ليوبخه على ظهوره وفي وقت غير ملائم، ثم قال له: اذهب إلى الكفار إن كنت تبحث عن فريسة! والغريب أن الأسد قد خفض رأسه أمام أمير المؤمنين وأدار ذيله ثم سار في طريقه.

وقد اعتبر العرب هذه الحادثة معجزة تدل على ما يتمتع به الأمير من حماية من العناية الإلهية (أركون، م. 2009: 49-76). أما أنا، فإني أميل إلى تفسير هذه الحادثة بكرم ملك الغابة الذي لا يهجم على الإنسان إلا متى كان الجوع قد أخذ منه.

والعرب يزعمون أنه إذا ظهر أسد أمام خيمة أسرة، فما على المرأة إلا أن تخرج نهديها أمامه لكي يخفض بصره ويعود أدراجه، على أنني، وأنا السائح الغريب في هذه الديار، لا أستطيع أن أثق بهذه الأسطورة" (الكولونيل اسكوت 1981: 94). مثل الكولونيل سكوت حضور

العقل الغربي أمام الخرافة الشرقية، داحضا إياها بينه وبين نفسه، ويعرف قيمتها جيدا كحقيقة عند الأهالي.

5- اللباس والزي والرموز الاجتماعية :

تسود في كل مجتمع عادات وتقاليد وألوان ورموز تعكس رؤيتهم وفلسفتهم للحياة، وقد أضحت هذه الأشكال التعبيرية الاجتماعية موضوع الدراسات الاجتماعية و الاستشرافية لما مثلته من امتداد طبيعي للهوية والذات.

اهتم الرحالة الإنجليز ابتداء من سنة 1830 م بدراسة العادات والتقاليد في المجتمعات الشرقية، لما لاحظوه عن هذه المجتمعات من كسل منتشر بين الجماهير، فاهتموا بكشف الأذواق والضرورات الاجتماعية التي تحكم حياة الناس، عن طريق الرؤية المباشرة والمعايشة والحضور الشخصي، محاولين تمييز ما يخص العرب عن الأتراك (Joëlle Redouane. 1988: 68)، اهتم الكولونيل اسكوت بزي الجنود في المغرب والجزائر، "و وصف هذا الضابط قد يسلي أولئك الذين لم يتح لهم قط أن يشاهدوا ضابطا في جيش السلطان يرتدي زيه الرسمي..وأما لباسه فيتكون - ابتداء من تحت إلى فوق - من زوج من الصندل أصفر اللون وسراويل واسعة لا تغطي ساقيه حيث تقف عند الركبة، وقميص أبيض من القطن. والقميص والسراويل ربطا بحزام أحمر. وفوق القطعتين حائك، منسوج من الصوف يلف جسم الرجل، ويهبط على الكتف اليمنى ويغطي رأسه الجزأ الأعلى من " قشابية" مصنوعة من الجوخ الانجليزي الرفيع، وقلنسوة (طربوش) يرتديها جميع جنود السلطان. وأما سلاح صديقنا الضابط فقد كان ينحصر في سيف يحيط به غمد من الجلد أصبح يعلوه الصدا لعدم استعماله. وقد علقه حول رقبته بحبل مفتول، وذلك بالإضافة إلى بندقية تركية طويلة ذات ماسورة واحدة وذات عقب مرصع، وهذه البندقية كان يحملها بكثير من الاعتزاز في كيس من القماش أزرق اللون "، " وزي الجنود يتكون من سراويل تركية وجاكيتة زرقاء مصنوعة من الجوخ مقفولة بأزرار، وحزام يشبه الحزام الذي يستعمله أفراد الجيش الاسباني لحمل الذخيرة. وضاربوا الطبول، معظمهم من الجنود الهاريين من الجيش الفرنسي، وتبعاً لذلك، فقد كانت معظم أنغام " المارش " التي يضربونها فرنسية.

والضباط يتميزون بحمل صفحة صغيرة من الفضة تتدلى، معلقة بسلاسل من الفضة عدة أهلة..وأما ضابط الصف فهو يتميز بصفة مماثلة لصفة الضابط العامل، وبزي أحمر ويحمل ثلاثة أشرطة من الفضة أو الذهب على كفه، والقبطان (السياف) وضابط الصف كلاهما يلبس زيا أحمر اللون" (الكولونيل اسكوت . 1981: 22، 142)، تتمازج الثقافات في زي الجنود المغاربة بين التركي والعربي، وخاصة التنظيم، كان متأثرا بالتقاليد العسكرية الفرنسية (خاصة جيش الأمير).

كانت هناك بعض الألوان التي تعكس الانتماء الطبقي والتي تعود دلالتها لعهود تاريخية سابقة، " ..ولكن الأشراف الذين ينحدرون من سلالة الرسول (ص) يلبسون عمامة خضراء؛ ليطيرون بها عن باقي المؤمنين الذين يلبسون خيوطا بيضاء أو سوداء على الرأس "، "وصلنا إلى قرية "همسل" تبعد بنحو فرسخ من تيطوان..تقدم إلينا رئيس القبيلة للترحيب بنا. إنه شيخ ذو مظهر وقور وعلى رأسه عمامة خضراء، مما يدل على أنه من الأشراف "، " والمسيحيون الذين يعتنقون الإسلام، يسمح لهم بلباس العمامة الخضراء ويعاملون معاملة الأشراف "، "فقد كانت الطبول تقرر والأسلحة تجرد، بينما كانت فرقة من الخيالة ترفع العلم الأحمر القاني "، " وفي اليوم السادس من إقامتنا في هذه القرية، لبس صديقي مصطفى أحسن ثيابه وسار وراءه أربعة من أتباعه يحمل علما كبيرا أحمر اللون على عمود، في مهمة لعقد الصلح" (الكولونيل اسكوت.1981: 20، 22، 75، 108، 185)، فهذا اللون الأخضر هناك من يعود به إلى بني أمية وهو أقرب إلى التأويل؛ كون الدولة الأموية هي التي اعتمدت كثيرا على مركزية العنصر العربي وتفاضله عن أجناس المسلمين الآخرين، كذلك اشتهرت الراية الحمراء أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين (العلم. الموسوعة العربية العالمية. 2004. النسخة الإلكترونية)، وقد استمرت هذه الألوان إلى أعلام الدول الوطنية المغاربية (الأحمر، الأخضر)، ويشير الكولونيل إلى رمزية ذيل الفرس في دولة الأمير، "وعند الزوال، وصلنا إلى معسكر قوات البوحميدي وأول ما وقعت عليه عيني وأثار انتباهي في معسكر الخليفة، هو ذيل فرس في خيمة البوحميدي، فأنا لم أكن أعرف أن الشعار الذي يميز الباشا في تركيا، قد اعتمده نائب الملك (الخليفة) في الولايات التي

قسم عبد القادر مملكته إليها " ، فقد كانت الطبول تترع والأسلحة تجرد وفي نفس الوقت أخرج ذيل الفرس الذي كان في خيمة الخليفة " ، وكان لا بد من هذه الرموز وخاصة أن للعدو جيشاً منظماً؛ توحى بدلالات وطنية وعقائدية وأخرى سلطوية تنظيمية ، "لقد قتل جندي أسود ، وهو عبد الحاج مصطفى، اثنين من الفرنسيين بيده يوم 2 يونيو، وقد كافأه الأمير عبد القادر الذي شهد المنظر بعينيهِ أثناء المعركة بأن أعطاه سيفه الخاص، بالإضافة إلى الوشاح المحمدي الذي هو الوسام العسكري الوحيد في المملكة ..." (الكولونيل اسكوت . 1981: 74 ، 105، 75).

وعادة ما تطبع الحروب الاحتفالات بطابع خاص، فعيد المولد النبوي الشريف الذي كان يتميز بمظاهر احتفال خاصة في المغرب العربي، اختزل في إطلاق البارود، " يوم الغد، يوافق عيد المولد النبوي، وسيحتفل جميع المسلمين بهذه المناسبة، وقد وزعت الخراطيش مجاناً على جميع الأشخاص الذين يملكون بنادق، ومن بين مظاهر الاحتفال أيضاً أن يقوم رؤساء القبيلة بدورة ثلاث مرات حول مخيماتها وهم يرتلون الصلوات على النبي العربي" (الكولونيل اسكوت. 1981: 81)، ومن العهود التي مازالت تحيا إلى يومنا هذا هي المشاركة في الأكل داخل البيت، وكأنه عهد على الوفاء الأبدى، " وعلى كل حال، فقد تشاورت مع مصطفى الذي كنت واثقا من أنه لن يخونني حيث أقسم أغلظ الإيمان، كما تناول الخبز والملح معي (وهي علاقة مقدسة عند العرب)" (الكولونيل اسكوت. 1981: 187)، فأغلظ الإيمان لم تكن كافية، بل طبيعة المجتمع الشفوي الطقسي هي التي تفرض نوعاً من العهود والمواثيق التي لا أساس لها في الدين، كالقسم بالأولياء والصالحين والآباء والأمهات.

خاتمة:

يعتبر البحث عن صورتك في كتابات الآخر محكاً حقيقياً لمنهجيتك الموضوعية؛ فأنت أمام ذاتك بعيون الآخرين، فتجد تاريخك لا كما عهدته ومقدساتك خرافات ومفاهيمك تاريخية ثقافية وعاداتك من غيرك ثقافاً، ولكن روح العلم تفرض عليك قبول نتائج منهجه مهما كانت، فيمكنك أن تعيد تأسيس ذاتك في إطار الآخر الذي غيبته قرونا وهو معك.

إن المتمعن في رحلة الكولونيل اسكوت يدرك مدى خصوصية المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها مقاومة الأمير عبد القادر؛ حيث أحيى من جديد

الصراع الإسلامي المسيحي المتمثل في المقاومة الجزائرية والاستعمار الفرنسي.

ظلت صورة المسيحي عند المسلمين نمطية ترجع تاريخيا إلى ظروف انتشار الإسلام والحروب الصليبية، ولكن داخل الصورة توجد تفاصيل جديدة، فلم يعد المسيحي معتق المسيحية فقط، بل تهم دولته الوطنية، هل هو فرنسي أم أنجليزي أم إسباني... وهذا يفرق كثيرا عما كانت عليه صورة المسيحي سابقا.

استمرارية تقوقع الإثنية اليهودية رغم نشاطها الاقتصادي الفعال. ظل الغربي يرسم للمرأة المسلمة صورة مستمدة من عالم الحريم المؤسسة على الغرائبية والجنس، ولم يشر اسكوت لأثرها الاجتماعي أو مشاركتها في المقاومة.

التنوع الثقافي الاجتماعي والخرافي للمجتمع المغربي لما فيه من تداخل عرقي ديني، وهذا التداخل يحكمه المركز والهامش.

إن رحلة الكولونيل اسكوت وغيرها من الأعمال عن مجتمعاتنا المغربية لها من الأهمية في تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي؛ في مرحلة تراجعنا فيها عن صناعة التاريخ أمام الآخر الذي يرسم ذاته في مرآتنا كعكس له حضريا ودينا وجغرافيا.

قائمة المصادر والمراجع :

- 1 أركون، محمد. 2007م. الإسلام الأخلاق والسياسة . ترجمة: هاشم صالح. الطبعة الأولى بيروت - لبنان دار النهضة العربية.
- 2 أنيا لومبا. 2007م في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ترجمة: محمد عبد الغني غنوم. الطبعة الأولى سورية - اللاذقية دار الحوار.
- 3 بورديو، بيار. 2009م. الهمنة الذكورية . ترجمة: سلمان قعفراني . الطبعة الأولى . بيروت: المنظمة العربية للترجمة .
- 4 دومينيك سورديل. 2007م. الإسلام في القرون الوسطى ترجمة: علي المقلد. دار التنوير للطباعة .
- 5 عبد الله إبراهيم. 2004م. المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزية الثقافية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى .
- 6 الكولونيل اسكوت. 1981م. مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- 7 الموسوعة العربية العالمية ، النسخة الإلكترونية .
- 8 Joëlle Redouane. 1988. L'orient arabe vu par les voyageurs anglais. Entreprise nationale du livre. Alger.